﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾ [فاطر: 14]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ عجزِ الأصنامِ عن السَّمع وعن أيِّ نفع

لمّا ذُكِرَ في الآية السّابقة أنَّ الأصنامَ لا تملك شيئًا، ولو كان حقيرًا، وذلك لتيئيس المشركين مِن انتفاعهم بها؛ ذكر هنا في هذه الآيةِ ما يدلُّ على ذلك العَجز، فقد كان المشركونَ يزعمونَ أنَّ الأصنامَ تسمع منهم، فلذلك كانوا يُكلِّمونها، ويوجِّهون إليها محامدَهم ومَدائحَهم وحوائجهم، فأبطلَ اللّهُ سبحانه مزاعمَهم، منبِّهًا إلى عجز أصنامهم عن السَّمع والإجابة والنَّفع والضُّرِّ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَجَابُواْ﴾: أَصْل (جوب) واحِدٌ، وهو خَرْقُ الشَّيءِ[2]، والجَوبُ: قطعُ الجَوبَة، ويُستعمَل في قطع كلِّ أرض، وجوابُ الكلامِ: هو ما يقطع الجَوبَ، فَيَصِلُ من فمِ القائل إلى سَمْعِ المستمعِ، والجوابُ يُقال في مقابلة السُّؤال، والاستجابة قيل: هي الإجابة، وحقيقتُها: التَّحرّي للجواب والتَّهيُّؤ له، لكن عُبِّر به عن الإجابة لقلَّة انفكاكِها منها، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: 60][3]، وفي أسماء اللّه: المجيب، وهو الَّذي يقابلُ الدُّعاء والسُّؤال بالعطاء والقبول[4]، فمعنى الاستجابةِ في الآية: قبولُ الدُّعاء، وإعطاءُ المسؤول.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 229، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 283.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جوب).
(3) الرّاغب، المفردات: (جوب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جوب).

2) ﴿بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾: (شرك) أصلان، أحدهما: يدلُّ على مقارنةٍ وخلاف انفراد، والآخر: يدلُّ على امتدادٍ واستقامةٍ، والمقصودُ هنا الأوَّل، وهو الشِّرْكَةُ، بأن يكونَ الشَّيءُ بين اثنين، لا ينفرد به أحدُهما، وأشركت فلانًا؛ إذا جعلته شريكًا لك، قال اللّهُ جلَّ ثناؤه في قصَّة موسى: ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ [طه: 32][1]، والشِّركُ في الدّين ضربان، أحدُهما: الشِّركُ العظيمُ، وهو: إثباتُ شريكٍ للّه تعالى، وذلك أعظمُ كفْرٍ، والآخر: الشِّركُ الصَّغير، وهو مراعاةُ غيرِ اللّه معَه في بعض الأمور، وهو الرّياء والنِّفاق، ولفظُ الشِّركِ من الألفاظ المشتركة، فأكثرُ الفقهاءِ يحملونه على الكُفّار جميعًا، ويرى آخرون أنَّهم عدا أهل الكتاب[2]، وأكثرُ ورودِ مفردات التَّركيب في القرآن بمعنى اتِّخاذ الكفّار شريكًا أو شركاء للّه، تعالى عمّا يصفون[3]، وهو المرادُ في هذه الآية.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّأكيدُ على عجزِ الأوثـان بنفي ما يدعون لها من الأُلوهيَّة

يقول تعالى ذِكرهُ في هذه الآية: إن تدعوا - أيُّها المشركون - هؤلاء الآلهةَ الَّتي تعبدونها من دون اللّه لا يسمعوا دعاءكم؛ لأنَّها جمادٌ لا تفهم عنكم ما تقولون، ولو سمعوا على سبيل الفرضِ؛ ما أجابوكم، ويوم القيامةِ يتبرَّؤون منكم، ولا أحدَ يخبرك - أيُّها الرَّسول - أصدقَ من اللّه العليم الخبير[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

بيـانُ بعـضِ صفـات العجز في معـبـوداتِ المشركين

فُصِل قولُهُ تعالى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ عمّا قبلَهُ، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرك).
(2) الرّاغب، المفردات: (شرك).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (شرك).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 350، نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 436.

لوجود كمالِ الاتِّصال بينهما، وهو اتِّحاد الجُملتين اتِّحادًا تامًّا، وامتزاجًا معنويًّا، بحيثُ تُنزَّل الثّانيةُ من الأولى منزلةَ نفسِها[1]، فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ﴾ بيانًا أو خبرًا ثانيًا عن معبودات المشركين، والمقصدُ منها تنبيهُهم إلى عجز أصنامهم بأنَّها لا تُسمَع[2].

بلاغةُ أسلوبِ الشَّرط في الآية:

تَظْهَرُ بلاغةُ أسلوبِ الشَّرط في قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ﴾ في تعليق مضمون الجوابِ على دوامِ حصولِ مضمون الشَّرط، فيَحصُل الثّاني بحصول الأوَّل، فكلَّما دعا المشركون أصنامَهم من أجل جَلْب نفعٍ أو دفعِ ضرٍّ، عجزت هذه الأصنامُ عن سماع دعائِهم وإجابته، فظهر جهلُ المشركين بدعاء مَن هذه حالُه.

إقامةُ الحُجَّة على المشركين بعدم سماعِ الأصنام لدعائهم

غرضُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِن﴾ دون (إذا):

عُبِّرَ في قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ﴾ بحرف الشَّرط الجازم ﴿إِن﴾، وهو وإن كان يرد عمومًا في المعاني المحتمَلَةِ الوقوعِ، والمشكوكِ في حصولها، والموهومة والنّادرة والمستحيلة وسائرِ الافتراضات الأُخرى[3]، إلّا أنَّ دخولَهُ على فعل الشَّرطِ المضارع ﴿تَدْعُوهُمْ﴾ يفيد افتراضَ تكرُّرِ الحَدَث ودوامِه واستمرارِه، وهو موافقٌ لسياق الآية، فتعجز الأصنامُ في كلِّ مرَّةٍ عن إجابة الدّاعين، فعَجْزُها ثابتٌ مستمرٌّ، وفي هذا توبيخٌ لهم بسفاهة مَن يُقدِم منهم على دعوة الأصنام.

حرفُ (إذا) للمقطوعِ بِهِ، وحرف (إن) للمحتمِل الوقوعِ

دلالةُ التَّعبيرِ بالدُّعاء في: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾، وكونه مضارعًا:

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالدُّعاء دونَ السُّؤالِ في قوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾؛

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 108.
(2) الخطيب الشّربيني، السِّراج المُنير: 3/ 320، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 283.
(3) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 69.

للدَّلالة على نفي القليل، وهو الدُّعاء الذي يلزم منه نفيُ الكثير، وذلك من السُّؤال، فالسُّؤالُ أعمُّ والدُّعاء أخصُّ، ودلَّ التَّعبيرُ بالمضارع في قوله: ﴿تَدۡعُوهُمۡ﴾ على تجدُّد دعاء المشركين للأصنام، واستمرارِهم في طلب الحاجات منهم في الدُّنيا والشَّفاعة في الآخرة.

الدُّعاءُ أخصُّ من السُّؤال، والمضارع للدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار

دلالةُ التَّعبيرِ بالإضمار في ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بالضَّميرِ في قوله: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ﴾ دونَ الإظهار، بأن يقول: وإن تدعوا الأوثان أو الأصنامَ، على التَّهكُّم بهم؛ لأنَّهم جعلوها أهلًا لسماع دعائِهم، وهم لا يسمعون.

التَّهكُّمُ ممَّن يدعون الأوثانَ والأصنام

بلاغةُ النَّفي بـ ﴿لَا﴾:

أوثرَ استعمالُ حرفِ النَّفي ﴿لَا﴾ دون غيرها من أدوات النَّفي في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾؛ لما تتميَّزُ به من كونها أقدمَ حروفِ النَّفي في العربيَّة، وتتميَّز بدخولها على الأسماء والأفعال، فهي غير مختصَّةٍ، ولهذا لا تعمل، وتدخل ﴿لَا﴾ على الفعل المضارع، فلا تُقيِّدُهُ بزمنٍ على الأرجح، فهي تُفيد هنا الاستمرارَ، بمعنى استمرارِ عجز الأوثان عن إجابة الدُّعاء في جميعِ الأزمنةِ[1].

استمرارُ عَجْزِ الأصنام في جميعِ الأزمنةِ على الدَّوام

سرُّ التَّعبيرِ بنفي السَّماع دونَ نفي الاستجابة:

عُبِّرَ بنفي السَّماع في قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾؛ لنفي الله سبحانه عن الأصنام صفةَ السَّمعِ، وهو إدراكُ المسموعات، والسَّمع نوعان: سمعُ إدراكِ المسموع، وسمعُ إجابةِ المسموع، ومثالُه في قوله تعالى: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾ [المجادلة: 1]، فقد أثبت اللَّهُ لنفسِهِ سبحانه سمعَ الإدراك، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم: 39] أثبتَ سبحانه لنفسِهِ سمعَ الاستجابة، وفي قول المصلّي: (سمع اللَّهُ لمَن حَمِدَه) يُقصَد به الأمران جميعًا، يعني: يسمع، ويجيب مَن حمده بالإثابة، وأمّا الأصنام؛ فهي عاجزةٌ عن

نفيُ إدراكِ الأوثان للمسموعاتِ وإجابتِها

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 330.

نوعي السَّمعِ جميعًا، فهي لا تُدرِك المسموعاتِ، ولا تُجيب داعيها من باب أولى، فلذلك كان التَّعبيرُ بنفي السَّماع دونَ نفي الاستجابة؛ لأنَّه أعمُّ.

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَلَوْ سَمِعُواْ﴾:

مـواصـلـةُ الاستـدلالِ على بُـطـلان عـبـادة الأصنام

عُطِفَتِ الجملةُ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ﴾ على الجملة السّابقةِ في قوله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ﴾ بحرف الواو الدّالِّ على الجمعِ والاقترانِ، لذلك جمع النَّظمُ الكريم في هذه الآية ثلاثةَ أمورٍ تدلُّ على بُطلان عبادةِ الأصنام، **أوَّلُها**: أنَّها لا تسمع إن دُعيت، **والثّاني**: أنَّها لا تُجيب، ولو سمعت، وإنَّما جاء بهذه؛ لأنَّ لقائل مُتعسِّف أن يقول: عساها تسمع، والثّالث: أنَّها تتبرَّأ يومَ القيامة من الكفّار[1].

نُكْتَةُ (لو) في الآية:

مـجـاراةُ مـزاعـمِ المشركين لبيان عـجـزِ الأوثـــان المبين

أوثِرَ التَّعبيرُ بحرف (لو) في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ﴾؛ لأنَّه حرفُ شرط يُفيد الفرضَ والتَّقديرَ، ومجاراةً لمزاعم المشركين حين يدعونها، فإنَّها لا تستجيب لدعوتهم، ولا تَردُّ عليهم بقبول، وهذا استدلالٌ سندُه المشاهدة، فطالما دَعَوا الأصنامَ، فلم يسمعوا منها جوابًا، وطالما دَعَوها، فلم يُحَصِّلوا ما دعوها لتحصيله، مع أنَّها حاضرةٌ بمرأى منهم، غيرُ محجوبةٍ، فعدمُ إجابتِها دليلٌ على أنَّها لا تسمع، وفي هذا دليلٌ على عجزِها وبطلانِ عبادتها؛ لأنَّ شأنَ العظيم أن يستجيبَ لأوليائِهِ الَّذين يسعونَ في مرضاتِهِ، وهذا من أبدع الاستدلال المَوَطَّأ بمقدِّمة متَّفَقٍ عليها[2].

نُكْتَةُ التَّعبير عن الأوثان بضمير العقلاء:

عبَّر القرآنُ الكريم عن الأوثان الَّتي يعبدها المشركون من دونِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 434.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 605، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 283.

اللّهِ تعالى بضمير العقلاءِ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ﴾؛ لأنَّ عبَدَتَهم كانوا يصفونَهم بالتَّمييز جهلًا وغباوةً، ولأنَّه أُسْنِد إليهم ما يُسْنَد إلى أولي العِلْم مِنَ السَّمع والاستجابة، ويجوز أن يُراد كلُّ معبود من دونِ اللّهِ من الملائكة والجنِّ والإنس والأصنام، فغلَّب غيرَ الأصنامِ عليها، وقد يكون تنزيلُ الأصنامِ منزلةَ العقلاءِ مجاراةً للمردود عليهم على طريقة التَّهكُّم[1].

أوهامُ المشركين الجهلاءِ في إلحاق الأوثان بالعقلاءِ

دلالةُ التَّعبير بالفعل ﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾:

يجوزُ في قوله تعالى: ﴿مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ﴾ أن يكون (استجاب) بمعنى إجابةِ المنادي بكلمات الجوابِ، كما يجوز أن يكون بمعنى إجابة السّائلِ بتنويلِهِ ما سأله، وهذا من استعمالِ المشتركِ في معنييهِ[2].

جوازُ استعمالِ المشتركِ في معنييه

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾ دون (أجابوا):

عبَّر بالفعل ﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ﴾ دونَ (أجابوا)؛ لأنَّها أخصُّ من (أجاب)، وهي تقال لمن قَبِل ما دُعيَ إليه، وأمّا (أجاب)؛ فتُقال لمَن أجاب بالقبول وبالرَّدِّ، فهي أعمُّ، قال الرّاغب: "الاستجابةُ هي التَّحرّي للجواب والتَّهيُّؤُ له، لكن عَبَّرَ بهِ عن الإجابةِ لقلَّة انفكاكِها منها"[3].

الاستجابةُ أوكَدُ دلالةً من الإجابة

دلالةُ النَّفي بـ ﴿مَا﴾ دونَ غيرِها من حروف النَّفي:

جاء النَّفيُ بحرف ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْۖ﴾؛ للتَّأكيد على نفي أدنى استجابةٍ للأوثان، فهي لا تُغْني عنهم شيئًا في جَلْب نفعٍ أو دفعِ ضرٍّ، ويُلْحَظ في النَّظم أنَّه كلَّما كان السّياقُ القرآنيُّ يحتاج إلى مبالغةٍ في توكيد النَّفي؛ جيء به منفيًّا بـ ﴿مَا﴾ النّافية؛ لما تتميَّزُ بهِ عن سائر حروف النَّفي من خصائصَ، كنفي

المبالغةُ في توكيد انتفاء الاستجابةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 284، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 369.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 283.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 202.

الحال، ونفي الجنسِ متصِلَةً بمنفيّها، أو منفصلةً عنه، واقترانِ اسمِها غالبًا بـ (من) الدّالَّة على الاستغراق والتَّوكيد وغيره[1].

دلالةُ اللّام في ﴿لَكُمۡ﴾:

تبكيتُ المشركين في اعتقادهم نفعَ الأصنام

جاء الفعلُ (استجاب) في قوله تعالى: ﴿مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ﴾ متَّصلًا بحرف اللّام الدّالِّ على التَّعديَة، كما قالوا: حَمِد له، وشكر له، وهذا هو الغالبُ في استعمالِه، كقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: 60]، وقد يَحْذِفون اللّامَ، فيُعَدّونَه بنفسِه[2]، كقول كعب بن سعد الغَنَويِّ[3]:

وداعٍ دعا يا مَنْ يجيبُ إلى النَّدى***فلم يستجِبْهُ عند ذاكَ مجيبُ

سرُّ وصل ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

بيانُ حالِ الأوثان يومَ القيامةِ بعد بيان حالِها في الدُّنيا

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ بما قبلَه بحرف الواوِ؛ تكميلًا لوصف الأوثان، فإنَّه سبحانه لمّا بَيَّنَ عدمَ النَّفعِ فيهم في الدُّنيا؛ بَيَّنَ عدمَ النَّفعِ منهم في الآخرة، بل أشار إلى وجود الضَّررِ منهم في الآخرة، فينطقها اللّهُ سبحانه فتتبرَّأ مِن شركهم[4].

نُكْتَةُ تقديمِ الظَّرف ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

تهويلُ جزاءِ المشركين يومَ الدّين

تَقدُّمُ الظَّرفِ (يوم) في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ لغرض تهويلِ جزاء المشركين، فـ ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أهولُ مِن غيره من الأيّام بما لا يُقايَس، وعذابُه أفظعُ من عذاب الدُّنيا بما لا يقارَن، وفي ذلك اليوم تتبرَّأ الأوثانُ من عابديها، وتقول: ﴿مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨﴾ [يونس: 28].

---

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 253.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 91.

(3) البيت في ديوانه من قصيدة مطلعها:

تقولُ ابنَةَ العَبسيِّ قَد شِبتَ بَعدَنا***وَكُلُّ امرِئٍ بَعدَ الشَبابِ يَشيبُ

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 229.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

يـومُ القيامةِ معـروفٌ في عقيدة المسلمين

جاء لفظُ ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ معرّفًا بـ (أل) في قولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾؛ لدلالته على العهد، فيومُ القيامة معهودٌ عند المسلمين بما أخبر القرآنُ والسُّنَّةُ النَّبويَّة بأنَّه يومُ الحشرِ الَّذي يقوم فيه النّاسُ من خُمود الموتِ إلى بَعْثِ الحياة من أجل الحساب والجزاء[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالكفر في قوله: ﴿يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾:

الكفرُ بالشَّيء يُلزِمُ الإقرارَ ببطلانه

أوثرَ التَّعبيرُ بالكفر في قوله: ﴿يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾؛ لأنَّ الكفرَ بالشَّيء يُلزِمُ الإقرارَ ببطلانه، ويكون معنى ﴿يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾: يُقرّون ببطلانِ إشراكِكم لهم، ولأنَّه يدلُّ أيضًا على الجُحودِ والتَّبرُّؤ بقولهم: ﴿مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨﴾ [يونس: 28][2].

نُكْتَةُ المضارع في ﴿يَكۡفُرُونَ﴾:

تبرُّؤُ الأوثانِ من عابديها يومَ القيامة

استُعمِلت صيغةُ المضارع في الفعل ﴿يَكۡفُرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستقبال إذ محلُّه يوم القيامة، وهو اليوم الموعودُ للخلائق، وفيه يتبرَّأُ المتبوع من التّابع، ويرى المشركون فيه عاقبةَ شركِهم.

كُفْرُ الأوثانِ بينَ الحقيقة والمجاز:

لا يمتنعُ كلامُ الجمادِ يومَ القيامة

دلَّ قولُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ﴾ على أنَّ الأوثانَ تَكْفُر بشِرْكِ عابديها، وقدِ اختلفَ المفسِّرون في كيفيَّة ذلك، فذهب الجمهورُ إلى أنَّ ذلك بلسان المقال على وجه الحقيقة بأن يخلقَ اللّهُ فيها قدرةً على النُّطق، فتتبرَّأ من عبادة المشركين إيّاها، وتقول: ﴿مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ٢٨﴾ [يونس: 28]، وذهب فريقٌ آخَر إلى أنَّ كُفْرَ الأوثانِ يكون بلسانِ الحال على وجهِ المجاز، بما يظهر هناك

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 04/ 188.

(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 40/ 16.

من جُمودها وبُطولها عند حركة كلِّ ناطق، ومُدافعةِ كلِّ محتجٍّ، فيَجيء هذا على طريق التَّجوُّز[1]، كما قال ذو الرِّمَّة[2]:

وَقَفتُ عَلى رَبعِ لِمَيَّةَ ناطقٍ***يُخاطِبُني آثارُهُ وأخاطِبُه

وَأَسقيهِ حَتّى كادَ مِمّا أَبُثُّهُ***تُكَلِّمُني أَحجـارُهُ ومَلاعِـبُه

معنى الباء في قوله: ﴿بِشِرْكِكُمْ﴾:

ورد حرفُ الباءِ في قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ دالًّا على التَّعديَة؛ إذِ الفعلُ كُفْرٌ يتعدّى إلى مفعولِه بالباء.

نُكْتَةُ إضافةِ الشِّركِ إلى ضمير المخاطَبين:

أُضيفَ الشِّركُ في قوله تعالى: ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ إلى ضمير المخاطَبين من باب إضافة المصدر إلى الفاعلِ، فالكفّارُ جعلوا الأوثانَ شركاءَ للّه، فأضافَ الشِّركَ إليهم من حيثُ إنَّهم قرَّروه، وارتَضَوه لأنفسهم[3].

دلالةُ الواو في قوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾:

جاء قولُه تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ على سبيل التَّذييلِ لما سبق، وفائدةُ التَّذييلِ غالبًا توكيدُ المذيَّلِ، وإبرازُ حُكْمِهِ في صورة كليَّة[4]، فأكَّد اللّهُ سبحانه صدقَ ما حكاه عن المشركين من حالِ آلهتِهم، ونفي ما يدَّعون لهم مِن الإلَهيَّة[5].

التَّذييلُ بتأكيدِ صِدقِ أوصافِ آلهةِ المشركين

بلاغةُ النَّفي بـ (لا):

استُعمِل أداة النَّفي (لا) دونَ غيرِها من أدوات النَّفي في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ لما تتميَّز بهِ من كونِها أقدمَ حروفِ

تحقيقُ صِدقِ الأخبار بأنَّ المُخْبِرَ بها هو الخبير

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 434، والواحديّ، التفسير البسيط: 18/ 412، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 40.

(2) البيتان في ديوانه، بلفظ: وقَفتُ عَلى رَبع لِمَيَّةَ ناقَتي ... فَما زِلتُ أَبكي عِندَهُ وأُخاطِبُه، يُنظر: ديوان ابن الرّمة، ص: 23.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 434.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 6/ 386.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 284، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 369.

النَّفي في العربيَّة، وتتميَّز بدخولها على الأسماء والأفعال، فهي غيرُ مختصَّةٍ، ولهذا لا تعمل، وتدخل (لا) على الفعل المضارعِ، فلا تقيِّدُه بزمنٍ على الأرجح[1]، فهي تُفيد هنا تحقيقَ هذه الأخبارِ، بأنَّ المخبِرَ بها هو الخبيرُ بها وبغيرها، ولا يخبرُكَ أحدٌ مثلَ ما يُخْبِرك هو[2].

سرُّ التَّعبيرِ بفعل الإنباء:

النَّبأُ أهمُّ مِنَ الخبر وأعظم منه

أوثِرَ التَّعبيرُ بفعل الإنباءِ دون غيره، كالإخبار مثلًا في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾؛ لأنَّ النَّبأ - كما يقول أهلُ اللُّغة - أهمُّ مِنَ الخبرِ وأعظمُ منه، وفيه فائدةٌ مهمَّة، ولهذا جاء في القرآن استعمالُه في الأخبار الخطيرة نحو قوله تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [النّمل: 22]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾﴾ [ص: 67]، وقوله: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [النّبأ: 2][3]، وبما أنَّ المقامَ هنا في يوم القيامة، فلا يوجد خبرٌ أعظم منه؛ لذلك عُبِّرَ عنه بالنَّبأ.

دلالةُ توجيهِ الخطاب في قوله: ﴿يُنَبِّئُكَ﴾:

عمومُ الخطابِ في الجُمَل المرسلة مرسل الأمثال

يحتمل الخطابُ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ وجهين من حيثُ المقصودُ به، أحدهما: أن يكونَ ذلك خطابًا مع النَّبيِّ صلّى الله عليه وآله وسلَّم، ووجهه: هو أنَّ الله تعالى لمّا أخبر أنَّ الخشبَ والحجر يوم القيامة ينطق، ويُكذِّبُ عابدَه، وذلك أمرٌ لا يُعْلَم بالعقل المجرَّدِ لولا إخبارُ الله تعالى عنه أنَّهم يكفرون بهم يومَ القيامة، وهذا القول مع كون الخبرِ عنه أمرًا عجيبًا هو كما قال؛ لأنَّ المُخبِرَ عنه خبير، وثانيهما: هو أن يكون ذلك خطابًا غيرَ مختصٍّ بأحد، أي: هذا الذي ذُكِرَ هو كما قال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ أيُّها السّامعُ كائنًا من

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 330.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 284.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 284.

كنتَ ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، ويقوّي هذا الوجه: أنَّ هذه الجملة أُرسلت مرسلَ الأمثال، فلا ينبغي تخصيص مضمونها بمخاطَب معيَّنٍ[1].

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾:

نفيُ فعلِ الإنباء كنايةٌ عن نفي المُنبِئ

تضمَّن قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ كنايةً، حيثُ جَعَل نفيَ فعلِ الإنباء كنايةً عن نفي المُنبِئ، ولعلَّ التَّركيب: ولا يوجد أحدٌ يُنبِّئُكَ بهذا الخبر يُماثل هذا الخبيرَ الَّذي أنبأك به، فإذا أردفَ مُخْبِرٌ خبرَهُ بهذا المثل؛ كان ذلك كنايةً عن كون المُخبِر بالخبر المخصوص، ويريد بـ ﴿خَبِيرٍ﴾ نفسَهُ؛ للتَّلازم بين معنى هذا المَثل وبين تمثُّلِ المتكلِّم منه، فالمعنى: ولا يُنَبِّئُكَ بهذا الخبرِ مِثْلي؛ لأنّي خَبِرتُه[2].

فائدةُ التَّعريفِ بقوله: ﴿مِثْلُ﴾:

المِثْلُ المساوي إمّا في قَدْرٍ أو في صفة

عُبِّرَ بلفظ ﴿مِثْلُ﴾ بكسر الميم وسكونِ المثلَّثة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه سبحانه الخبيرُ على الحقيقة دونَ سائرِ المُخبِرين، وهذا المعنى مستفادٌ مِن لفظ ﴿مِثْلُ﴾[3].

دلالةُ الوصفِ ﴿خَبِيرٍ﴾:

وصفُ الرَّبِّ سبحانه بأوصاف الصِّدق والكمال

دلَّ التَّعبيرُ بوصف ﴿خَبِيرٍ﴾ على أنَّه سبحانه هو الخبيرُ بالأمر وحدَه؛ لأنَّه الَّذي يخبر بالأمر على ما هو في نفس الأمرِ والواقعِ، وهو المرادُ بالحقيقةِ، لا ما هو مقابَل بالمجاز، فيكون تحقيقُ ما أخبر به هنا عن آلهتِهم هو الحقُّ؛ لأنَّه خبيرٌ على ما هو الواقع وفي نفس الأمر[4].

دلالةُ وزن (فعيل) في ﴿خَبِيرٍ﴾:

المبالغةُ في العِلْمِ بدقائق الأمور

أوثرَ التَّعبيرُ بالصِّفة المشبَّهة ﴿خَبِيرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾؛ لأنَّها مشتقَّةٌ من خَبُرَ فلانٌ الأمر؛ إذا علِمَه علمًا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 229، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 22.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 284.
(3) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 41/ 16.
(4) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 41/ 16.

لا شكَّ فيه، والخبيرُ: هو العالم بدقائق الأمورِ لا يتوصَّل إليها غيرُه، وقال الغزاليُّ: هو الَّذي لا يَعزُب عنه الأخبارُ الباطنة، ولا يجري في المُلك والملكوت شيء، ولا تتحرَّك ذرَّةٌ، ولا تسكن، ولا تضطرب نفسٌ، ولا تطمئنُّ، إلّا ويكون عندَه خبرُها[1].

دلالةُ تنكير ﴿خَبِيرٍ﴾:

جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ لفظُ ﴿خَبِيرٍ﴾ نكرةً، مع أنَّ المرادَ به خبير معيَّن، وهو المتكلِّم فكان حقُّه التَّعريفَ، فعدلَ إلى تنكيرِه لقصد التَّعميم في سياق النَّفي؛ لأنَّ إضافةَ كلمةِ ﴿مِثْلُ﴾ إلى ﴿خَبِيرٍ﴾ لا تُفيدُه تعريفًا[2].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ في الآية:

بناءُ الأمثالِ على الإيجازِ والاختصارِ

صار قولُه تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ مثلًا من الأمثال، ولمّا كان شأنُ الأمثالِ أن تكون موجَزةً صيغَ على أسلوب الإيجاز، فحُذِفَ منه متعلِّق فعل (ينبئ)، ومتعلَّقُ وصف ﴿خَبِيرٍ﴾، ولم يُذْكَرْ وجهُ المماثلةِ لعلمِه مِنَ المقام[3].

دلالةُ الخِتام في الآية:

ومَن أصدقُ مِن الله حديثًا

خُتِمَتِ الآيةُ بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ تذييلًا لتحقيق هذه الأخبارِ، بأنَّ المُخبِرَ بها هو الخبيرُ بها وبغيرها، ولا يُخبِرُك يا محمَّد عن أمر هذه الآلهة، وعن عَبَدتِها يومَ القيامة إلّا ذو خبرةٍ بأمرها وأمرهم، وهو اللّه الذي لا يخفى عليه شيءٌ كان، أو سيكون في مستأنَف الأزمان، فإنَّه الخبيرُ بكُنْهِ الأمور دونَ سائرِ المُخبِرين[4].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 370، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 284.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 284.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 284.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 370.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإنباءُ والإخبارُ:

عـمـومُ الـخـبرِ وخـصـوصُ النَّبأ بأنَّه الخبر الَّذي له خَطْبٌ وشأن

ظاهرُ صنيعِ كثيرٍ مِن أصحاب المعجمات أنَّهما مترادفان[1]، ولعلَّه جريٌ منهم على المسامحة؛ تقريبًا للمعاني، بل إنَّ بعضَهم نصَّ على ترادفهما[2]، وفرَّق بينهما جماعة من أهل العلم - وهو التَّحقيق - وذلك أنَّ النَّبأَ هو الخبر الذي له خطبٌ وشأنٌ، ومنه سُمّيَ النَّبيُّ نبيًّا؛ لأنَّه يوحى إليه، والوحيُ: خبرٌ عظيمٌ له شأن، بخلاف الخبر، فهو أعمُّ؛ إذ يُطلق على ما له شأن، وما ليس ذلك[3].

وذكر أبو هلالٍ العسكريُّ فرقًا آخر، وهو أنَّ النَّبأَ لا يكون إلّا للإخبار بما لا يعلمه المُخبَر، بخلاف الخبرِ، فإنَّه أعمُّ منه، فيكون لما يعلمه المُخبَر، ولما لا يعلمه[4].

وهذا الفرقُ فيه نظرٌ، فإنَّ الله تعالى قال: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ [التّوبة: 70]، والاستفهام في ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ [التوبة: 70] للتَّقرير[5]، أي: قد أتاهم نبأ الذين من قبلهم، فقد علموه قبلُ، ومع ذلك وقع التَّعبيرُ عنه بلفظ النَّبأ، فآثَر النَّظمُ القرآنيُّ استعمالَ لفظِ (النَّبأ)؛ لتعلُّقِ الأمرِ بيومِ القيامة، فهو نبأٌ عظيمٌ له خطب وشأن.

(1) الخليل، العين: (خبر)، والأزهري، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (نبأ).

(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (نبأ) و(خبر).

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 227/ 8، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 306/ 2، والشّنقيطي، العذب النّمير: 146/ 1، 104/ 2، 138، 607.

(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 528.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 260/ 10.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والأربعون،
سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2025م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2025م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 46 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-99-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 46 : المجلد السادس والأربعون، سورة سَبإ من الآية 13 إلى سورة فاطر الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-99-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0986397 بتاريخ 2025/01/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»